فيروس كورونا وقضايا العولمة من منظور نظريات العلاقات الدولية

Coronavirus and Globalization Issues from the Perspective of International Relations Theories

عمر سعداوي

جامعة بومرداس، الجزائر، a.saadaoui@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/16 **تاريخ القبول:** 2021/05/27 **تاريخ النشر:** 2021/07/10

ملخص:

في ظل الانتشار السريع لفيروس كورونا منذ بداية ظهوره في ووهان الصينية أواخر ديسمبر 2019 وإلى اليوم، وما خلفه من تداعيات على كافة جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية، وتأثير كل هذه التحولات على الشكل الذي قد يبدو عليه العالم بعد هذه الأزمة، تسعى هذه الدراسة لمساءلة نظريات العلاقات الدولية حول مستقبل العولمة بعد فيروس كورونا، وذلك من خلال استعراض النقاش المتصاعد بين المدارس النظرية المختلفة، والتي من بينها الاتجاه الواقعي الذي يعتقد أن الدول تتوجه نحو تعزيز "المصلحة الوطنية" من خلال "الاعتماد على الذات" في ظل عالم يسوده التنافس والصراع، والاتجاه الليبرالي الذي يعتقد أنه ونظرا لطبيعة التهديدات العابرة للحدود، فإن الدول لا يمكنها مجابهة كل ذلك بشكل منفرد، وعليه لا مناص من التوجه نحو التعاون الدولي.

الكلمات المفتاحية: *فيروس كورونا؛ العولمة؛ الواقعية؛ الليبرالية؛ التهديدات.*

Abstract:

In light of the rapid spread of the Coronavirus from its beginnings in Wuhan, China, in late December 2019, and its impact on aspects of Social, Economic, Politicol and Security, and the impact of all these transformations on how the world could face this crisis, this study seeks to challenge theories of international relations on the future of globalization after the Coronavirus, reviewing the escalation of the debate between the different schools of thought, Among them is the realistic approach that states are moving towards promoting "national interest" through "self-help" in a world dominated by competition and conflict, and between the liberal approach that is believed to be due to the cross-border nature of challenges and threats Countries cannot face all of this alone and, it is imperative to move towards international cooperation

Keywords: *Coronavirus; Globalization; Realism; Liberalism; threats.*

* **المؤلف المرسل: عمر سعداوي، a.saadaoui@univ-boumerdes.dz**

مقدمة

من مدينة "ووهان" الصينية في أواخر ديسمبر 2019 وإلى الآن استطاع "فيروس كورونا" (Covid-19) أن يصل إلى جل دول العالم بإجمالي عدد إصابات تتجاوز 93 مليون إصابة، منها أكثر من مليون و996 ألف وفاة إلى الآن، وإلى جانب هذه الخسائر البشرية استطاع "الفيروس التاجي" فرض حواجز سريعة وغلق للحدود و"حظر شامل" على حركة السفر وتهاوت أسواق المال وتراجعت نسب النمو العالمية وسلاسل التوريد مشلولة وفرض القيود على التصدير وتوقف المواصلات العالمية.

ولم تقتصر تأثيرات الانتشار الواسع والسريع لفيروس كورونا في العالم على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والصحية والسياسية والتفاعلات الدولية فحسب، بل تصاعد النقاش في أوساط المفكرين والباحثين في حقل العلاقات الدولية حول شكل العالم بعد هذه "الجائحة"، وما إذا كنا سنشهد "تراجعا للعولمة" لصالح "النزعة القومية"، وذلك من منطلق أن الأزمات تعتبر "قوى محركة" (Driving Forces) لتطور المعرفة، والتي هي أساسا –أي المعرفة- إعادة بناء مستمرة.

من هذا المنطلق تسعى هذه الدراسة لمساءلة النظريات الكبرى في العلاقات الدولية حول شكل العالم بعد أزمة كورونا، وما إذا سيكون عالما ينحو بإتجاه "الاعتماد على الذات" وتتصاعد فيه "النزعة الوطنية" أم انه سيكون عالما يسود فيه منطق التعاون الدولي وأكثر انفتاحاً من منطلق تشابك المصالح بين فواعله.

وتنطلق الدراسة من فكرة أساسية عبرت عنها "الليبرالية" مفادها أنه ونظراً لطبيعة الأخطار العابرة للحدود –ومنها فيروس كورونا- ما يستدعي تضامن وتعاون بين الدول في سبيل مجابهتها، فلا يمكن الحديث عن أمن الدول بمعزل عن أمن باقي الدول في ظل هذه الأخطار الراهنة، في حين تجادل "الواقعية" بأن "فيروس كورونا" شكل اختبار حقيقياً للدول، والتي سارعت "للانكفاء عن الذات" معتمدة على نفسها في سبيل تحقيق "المصلحة الوطنية" والمرتبطة "بمحاربة" هذا الوباء، وهو ما يعبر على أنانية الدول.

1. فيروس كورونا وعولمة الصحة العامة

إن عالم العولمة اليوم لا يمكن النظر إليه من زاوية الدول ذات السيادة دون غيره من الفواعل الأخرى، فالعولمة في أبسط معانيها هي "عملية الترابط المتزايد بين المجتمعات بشكل يكون معه تأثير الأحداث في ركن من أركان العالم متزايدا أكثر فأكثر في الناس والمجتمعات ضمن ركن أو أركان أخرى بعيدة للغاية عن مركز تلك الأحداث".(بيليس، سميث 2004، ص. 13) وعليه فعالم العولمة اليوم أكثر ترابطا وتتصاعد فيه الأحداث بشكل متسارع بحيث لا يمكن الفصل بينها، أين نجد التداخل بشكل عميق بين ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي وأمني، وهو الأمر الذي زاد من صعوبة فهم الظواهر اليوم، خاصة في ظل تزايد معدلات التجارة الدولية وأنماط التواصل على غرار "شبكات الانترنت" (شبكات مواقع العالم أجمع) (World Wide Web).

والأمر لا يقتصر على وسائل الاتصال فحسب، بل هناك العديد من التحولات والظواهر التي أضحت تحتاج إلى "الحفر" فيها، على غرار الأوبئة والمخاطر العابرة للحدود التي تعرف بميدان "الصحة العامة" والتي يأتي على رأسها اليوم جائحة كورونا (Covid19) وتأثيره في السياسة العالمية، وذلك من منطلق أن الأمراض المعدية والناشئة والسياسات المرتبطة بمواجهتها تعد من صميم العولمة.

وموضوع "عولمة الصحة العامة" اليوم لم يعد يقتصر على الرعاية الطبية والأطباء والباحثين في مجال الطب، بل أصبح مرتبط بالمواطنة والدولة والعلاقات الدولية، وهو الأمر الذي جعل الباحثين والمفكرين المهتمين بالبحث في ميدان العلاقات الدولية يولون أهمية لموضوع الصحة العامة، كما عليه الحال الآن في ظل جائحة كورونا.

ربما ما يزيد من ضبابية الصورة الذهنية لدى الكثير من الباحثين والمفكرين هو أن أزمة وباء كورونا لا تزال مستمرة إلى الآن هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأسئلة المقترنة ب "الما بعد" هي أسئلة صعب حصرها في إجابات محدد كونها مرتبطة بأفكار كبرى خاصة والمفهوم لا يزال غامض وفي بداياته. (https://bit.ly/2XyCcaB)

ولكن الشئ ربما الذي يتفق عليه الجميع أن جائحة كورونا قد عطلت العالم برمته، الأمر الذي دفع بالدول إلى غلق حدودها، وهو ما يجعل الباحث في العلوم السياسية يصاب ب "القلق المعرفي" كما هو الحال في التخصصات الأخرى على غرار الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من التخصصات الاجتماعية والإنسانية، لذلك نحاول إثارة مجموعة من التساؤلات التي قد تمكننا من تجاوز هذا "القلق المعرفي"، والتساؤل حول الكيفية التي استجابت بها الدول مع تفشي فيروس كورونا المستجد؟.

وفي سبيل تحديد القضايا ذات الأولوية والتي تشكل تهديداً وجودياً يشير صندوق Skoll للتهديدات العالمية (Skoll Global Threats Fund) إلى قضايا شح المياه والمناخ والأوبئة باعتبارها تهديدات "للمشاعات العالمية"، وذلك في اعتماده على معيارين: الأول هو أهمية التهديد، والثاني هو الحاجة إلى تحرك جماعي. (https://bit.ly/35sEaO3)

ففي حالة جائحة كورونا (Covid-19) الأمر أضحى يشكل تهديداً وجودياً على البشرية ، من بداية ظهوره بمدينة "ووهان" في ديسمبر 2019 وإلى اليوم لا يزال رقم الإصابات في ارتفاع، إذ تشير إحصائيات يوم 07 جانفي 2021 إلى أنه بلغ عدد المصابين بفيروس كورونا في العالم نحو 87 مليونا و641 ألف إصابة، في حين بلغ عدد الوفيات نحو مليون و892 ألف وفاة، إ تواصل جائحة كورونا تفشيها في 218 دولة حول العالم، كما أن الاحصائيات تتحدث على ارتفاع متواصل في نسب الإصابات، ولا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر الدول في عدد الإصابات (260,973) منها (4,100 وفاة) خلال يوم واحد.(https://bit.ly/2XykunU)

هذا الوضع يذكرنا بمدى هشاشة الحياة البشرية، وهو ما أشار إليه سنة 1895 "سايروس إدسون" (Cyrus Edson) مفوض الصحة العامة في مدينة نيويورك، في مقال بعنوان "الجرثوم كرافعة اجتماعية" (The Microbe as a Social Leveler) –والذي كان متأثراً بأفكار الاشتراكي البريطاني "جيرارد وينستانلي (Gerrard Winstanley)- إذ يقول "إن جرثوم المرض لا يحترم البشرية"، فأوضح بأنه "على الرغم من أن الفقراء هم الأكثر عرضة للإصابة بالمرض، إلا أن الأغنياء لن يكونوا آمنين من العدوى"، لذلك يقول "إدسون" أن "اشتراكية الجرثوم هي سلسلة الوباء التي تربط بين جميع أفراد المجتمع".(https://bit.ly/39ladRi)

وهو الأمر الذي تعبر عنه الاحصائيات، فإن كانت الكثير من الدول الفقيرة أو تلك المصنفة من العالم الثالث تكافح في سبيل توفير المواد المطهرة والكمامة، كانت كذلك اغلب دول الشمال على غرار أوروبا وأمريكا وغيرها تعاني من جراء تداعيات الفيروس التاجي، ولعل الصور التي تناقلتها وسائل الإعلام في ايطاليا وفرنسا وغيرها دليل على حجم المأساة، وعلى سبيل المثال لا الحصر، تشير الاحصائيات أن الدول الخمسة التي تشهد

أعلى الإصابات وذلك بتاريخ 07 جانفي 2021 وخلال يوم واحد هي: أمريكا (260,973 إصابة)، البرازيل (62,532 إصابة)، بريطانيا (62,322إصابة)، ألمانيا (26,651 إصابة)، وفرنسا (25,379 إصابة).(https://bit.ly/3i5DxPz)

من خلال هذا يظهر مدى سرعة انتشار الفيروس التاجي، فعالم اليوم أصبح أكثر تعولماً وهو ما سرع في انتشار فيروس كورونا -على حد تعبير- "أورليا بيغنو" (Aurelia Beigneux) –وهو سياسي فرنسي من التجمع الوطني اليميني- الذي يقول "إن حرية انتقال السلع والأشخاص، وسياسات الهجرة والضوابط الضعيفة على الحدود تسمح بوضوح بالانتشار المتسارع لهذا النوع من الفيروسات"،(https://bit.ly/3qbuZK1) فالمدن العالمية ذات الاتصال المفرط "قوى شاهقة" على المستوى الاقتصادي، ولكنها أيضا منافذ دخول للعدوى.

فحسب أصحاب هذا التوجه فإن العولمة تسرع في انتشار التهديد، ومثل هذه الأزمات تشكل بالون اختبار للدول قد تدفع بها إلى مراجعة سياساتها العامة، خاصة تلك التي تعتمد على قطاعات السياحة والتعليم والتي تفوق نسبة 70%على غرار استراليا وتونس، والمرتبطة بالمنظومة الاقتصادية العالمية.

حتى بعض الدول الصناعية الكبيرة على غرار الولايات المتحدة وجدت نفسها في مأزق اقتصادي نتيجة اعتمادها المفرط على الواردات الصينية والهندية خاصة فيما يتعلق بالمواد الصيدلانية النشطة، بما في ذلك أكثر من 97% من المضادات الحيوية، فوفقاً لهذا المنظور الجيو-اقتصادي فإن الوباء يبين لنا مدى أهمية الإنتاج المحلي لمثل هذه المواد الأساسية.(https://bit.ly/3qbuZK1) فسلاسل التوريد شهدت اهتزاز نتيجة غلق الدول لحدودها وسياسات الحجر التي فرضتها كوسيلة لمحاصرة الوباء، وهو ما زاد من اضطراب الأسواق المالية العالمية، ففي 10 فيفري 2020 أفاد بنك الاستثمار "مورغان ستانلي" (Morgan Stanley) أن تفشي الوباء في الصين، وهي ثاني أكبر اقتصاد في العالم، يمكن أن يكون عقبة أمام تعافي النمو العالمي، (https://bit.ly/2MMKQ3a) وهذا ما يبرز الارتباط المعقد بين الاقتصاد العالمي والتفشي العالمي للوباء.

هاته المخاوف هي التي عبرت عنها "أنثيا روبرتس" (Anthea Roberts) و"نيكولاس لامب" (Nicolas Lamp) صاحبا مشروع كتاب سيصدر قريبا بعنوان: الفائزون والخاسرون: سرديات عن العولمة الاقتصادية (Winners and Losers: Narratives about Economic Globalization)، أنه "عندما يتعلق الأمر بفيروس كورونا، تظهر روايات متعددة، بدلا من تبني إطار مشترك لفهم هذا التهديد، يضاعف الفاعلون من انتقاداتهم الحالية للعولمة والليبرالية الجديدة، مستخدمين فيروس كورونا لإظهار مدى صوابهم". (https://bit.ly/3byfIPg)

حجم النقاشات التي أثيرت حول جائحة كورونا ينم على أهمية التحولات التي قد تطرأ على السياسة العالمية، على غرار ما خلفته الأنفلونزا الاسبانية سنة 1918، إذ تشير "لورا سبيني" (Laura Spinney) صاحبة كتاب "الراكب الشاحب: الإنفلونزا الإسبانية عام 1918 وكيف غيرت العالم" (Pale Rider: The Spanish Flu of 1918 and How it Changed the World)، والتي أودت بحياة 50 مليون شخص، وأنشأت الدول منظمات جديدة لمكافحة العدوى، لكن في عصر الأوبئة والتنافس المتجدد بين القوى العظمى لم تعد هذه المنظمات كافية،(https://bit.ly/3nAfhX9) أي أنه هناك إمكانية لأن تغير جائحة كورونا شكل العالم الراهن كما فعلت الأنفلونزا الاسبانية من قبل.

هذا الافتراض يدفعنا للتطرق للنقاش حول ما إذا كان "الفيروس سيقتل العولمة" (Is the Virus Killing Globalization?) على حد تعبير "أنثيا روبرتس" و"نيكولاس لامب"، لكن الباحثين في الشطر الثاني من

عنوان المقال يقدمان الإجابة على أنه "ليس هناك جواب واحد" (Ther's No One Answer)، (https://bit.ly/35waZKm) وهو ما يدفعنا لمساءلة الواقعيين والليبراليين في سياق تبريراتهم حول الموضوع.

2. نظريات العلاقات الدولية وسوسيولوجيا المخاطر: حالة فيروس كورونا

في 28 جانفي 2020 وفي قاعة الشعب الكبرى في ميدان تيانانمين ببكين –رمز القوة السياسية للحزب الشيوعي الصيني- التقى الرئيس الصيني "شي جين" والمدير العام لمنظمة الصحة العالمية (WHO) لمناقشة تفشي فيروس كورونا الحالي، حيث قال "شي" "الوباء شيطان، ولا يمكننا أن ندع الشيطان يختبئ".(https://bit.ly/3nJ1jm1) فقد استطاع هذا "الشيطان" بحسب تعبير الرئيس الصيني أن يوقف شركات الطيران وحظر السفر وخلق أزمة لأسواق المال العالمية وأوقف تدفق التجارة العالمية وأغلق أماكن العبادة وغير من سلوكات الأفراد اليومية، لقد أفرز هذا الوباء حواجز جديدة وبسرعة مذهلة.

وفي هذا السياق يقول "فرانك سنودن" (Frank Snowden) –الأستاذ الفخري لتاريخ الطب في جامعة ييل (Yale University)، في مقابلة مع "النيويوركر" (New Yorker) أنه "لا توجد منطقة رئيسية من حياة الإنسان لم تمسها الأمراض الوبائية بعمق"، ويضيف "أن الأوبئة لها آثار هائلة على الاستقرار الاجتماعي والسياسي، كما حددت نتائج الحروب، ومن المحتمل أيضا أن تكون جزءا من بداية الحروب في بعض الأحيان"، (https://bit.ly/3buz7Ax) لذلك تشكل هذه الأوبئة فرصة لإعادة صياغة طريقة التفكير في التاريخ البشري.

ففي القرن السادس قتل الطاعون الذي اجتاح الإمبراطورية الرومانية ما يقدر ب 30 إلى 50 مليون شخص –ربما قد يصل إلى نصف سكان العالم في ذلك الوقت- إذ يشير بعض الباحثين إلى أن موجات الأوبئة التي هزت الإمبراطورية على مدى 400 عام لعبت دوراً مهماً في زوالها النهائي.

وقد أدى ما يعرف ب "الموت الأسود" (Black Death) في القرن الرابع عشر إلى وفاة ما يصل إلى 200 مليون شخص في شمال أفريقيا وآسيا وأوروبا (حوالي 30% إلى 60% من سكان أوروبا هلكوا)، بحيث يكتب في هذا السياق المؤلف الإيطالي "جيوفاني بوكاتشيو" (Giovanni Boccaccio) الذي نجا من عصر الوباء، في كتابه "ديكاميرون" (The Decameron)، يقول "كان هذا العدد الكبير من الذين ماتوا في المدينة ليلاً ونهاراً لدرجة أنه كان من المدهش أن نسمع شيئا غير ذلك"، ويضيف "كانت آثار هذه الكارثة واسعة النطاق وبعيدة المدى، فقد جردت المدن وأوقفت الحروب وعكست تطور اللغات وأدت إلى زعزعة سيطرة النخب النبيلة المالكة للأراضي، الذين أجبرو على حساب نقص هائل في العمالة".(https://bit.ly/38AvYNL)

فالأوبئة على مر التاريخ شكلت تجارب مشتركة تطبع نفسها بشكل لا يمحى في المجتمعات، وما تخلفه من تحولات عميقة على عدة مستويات، كما سبق الإشارة إليه، وهو ما دفع مجلة "الفوربين بولسي" (Foreign Policy) في 20 مارس 2020 إلى طرح سؤال "كيف سيكون شكل العالم بعد نهاية كورونا؟"، وهو السؤال الذي طرح على اثني عشر مفكرا ومنظرا بارزا من مختلف المدارس الفكرية في العلاقات الدولية. (https://bit.ly/2LrIsOZ)

وقد تباينت الإجابات على هذا السؤال بشكل يعبر على مساءلة الاستشكال والافتراضات الكبرى حول العلاقات الدولية، ولكن بالعموم يمكن أن نحدد توجهين كبيرين حول هذا السؤال: توجه يسعى إلى الاعتقاد

بالاعتماد على الذات، وهو ما تعبر عنه الواقعية، وتوجه يتمسك بالتعاون الدولي كحل لتجاوز مأزق فيروس كورونا، وهو ما تعبر عنه الليبرالية.

وفي المحصلة فإن أثر الأزمة سيدفع في اتجاه تطوير الإجابة على السؤال: كيف ننتج ما ننتجه بشكل أكثر كفاءة؟ وليس لماذا ننتج ما ننتجه؟ فالثاني يقود إلى ابتكار منتجات جديدة (Product Innovation)، بينما الأول يقود إلى ابتكار عمليات وآليات أكثر كفاءة لإنتاج ما ننتجه (Process Innovation)، لذلك فإن دراسة العلاقات الدولية ستحاكي هذا الانغماس في التفاصيل والتقنيات والآليات مبتعدة أكثر وأكثر عن مساءلة الأسس المعرفية والقيمية لإنتاج المعرفة.(مشاري 2020، ص.71)

أ. الاتجاه الواقعي وتصاعد النزعة الوطنية في ظل جائحة كورونا

أضفي كتاب "كينث والتز" (Kenneth Waltz) "نظرية السياسة الدولية"، بعدا أعمق على المذهب الواقعي، فالفارق الأكبر بين النظامين الداخلي والدولي –حسب والتز- يكمن في بنية كل منهما، ففي إطار السياسة الداخلية لا يتعين على المواطنين أن يدافعوا عن أنفسهم، وفي النظام الدولي لا توجد سلطة عليا لمنع استخدام القوة، لهذا لا يمكن تحقيق الأمن إلا "بالعون الذاتي" أو الإعتماد على النفس (Self Help).(بيليس، سميث 2004، ص. 245)

من هذا المنظور ظلت "السياسة الدولية" صراعاً من أجل السلطة فيما بين الدول ذات السيادة باعتبارها الفواعل الرئيسية، والتي تسعى كل منها إلى تعظيم مصالحها الوطنية إلى أقصى قدر ممكن، فالسياسة العالمية ما هي إلا مسارات من التحالفات والمساومات من أجل تحقيق البقاء في ظل بيئة فوضوية.

للوهلة الأولى ومن خلال هذه الافتراضات قد يبدو أن الواقعية لا شيء يمكن أن تقوله حول "عولمة الصحة العامة" وحول جائحة كورونا (كوفيد-19) من منطلق تركيزها على السيادة والتي تتعارض ومفهوم "عولمة الصحة العامة"، إلا أن ذلك غير صحيح، فالواقعيين يرون أن الأوبئة تؤثر بشكل سلبي على قوة الدولة، لذلك فإن السيطرة على الأمراض المعدية لا بد وأن تكون على قدر عظيم من الأهمية.(Fidler 1997, p. 29)

فالأمراض المعدية من الممكن أن تؤثر على المنظومة الاقتصادية وبالتالي تقويض الإنتاج الاقتصادي الوطني للدولة مما يؤثر على قوتها العسكرية وقدراتها في السياسة الدولية، بل أن اهتمامها سيكون منصباً على سياستها الداخلية أكثر من سياستها الخارجية في ظل بيئة دولية تخضع لمنطق التنافس والصراع، وهو ما سيفقدها مكانتها.

وبالنسبة لجائحة كورونا، وبالرجوع لسؤال "الفوين بولسي" كيف سيكون شكل العالم بعد نهاية كورونا؟ يجيب "ستيفن والت" (Stephen M. Walt) أن العالم سيكون أقل تفتحاً وازدهاراً وحرية، بحيث سوف يعمل الوباء على تعزيز الدولة لقوميتها، كما أن الحكومات تتخذ كل التدابير لإدارة الأزمة وإعلان الطوارئ، أين سيكون من العسير التنازل عن هذه القوى والإجراءات الجديدة عندما تنتهي الأزمة،(https://bit.ly/3i5kAN3) ويضيف "والت" بالقول أن فيروس كورونا (كوفيد19) سوف يعمل على التعجيل بتحول "السلطة" و"النفوذ" من الغرب إلى الشرق، أين كانت استجابة الدول على غرار سنغافورة وكوريا الجنوبية والصين، كانت استجابتهم جيدة، عكس أوروبا وأمريكا التي كانت استجابتها بطيئة وعشوائية بالمقارنة، وهو الأمر حسبه الذي سيزيد من تشويه صورة "العلامة التجارية" الغربية.(https://bit.ly/3i5kAN3)

كما أن الأوبئة السابقة لم تنه التنافس بين القوى العظمى، ولم تظهر حقبة جديدة من التعاون العالمي، وبالتالي لن تتغير الطبيعة المتضاربة بشكل أساسي للسياسة العالمية،(https://bit.ly/3bw5L56) فمن خلال ذلك تظهر خلفية "ستيفن والت" الفكرية المرتبطة أساساً ب"الواقعية الجديدة" نافيا بذلك حدوث أي تعاون في ظل الظروف الراهنة المصاحبة لجائحة كورونا.

وفي إطار التنافس والتشويه بين الأطراف الدولية، تحول سؤال منشأ "فيروس كورونا" إلى محطة تجاذب خاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، حيث زعم المتحدث بإسم الخارجية الصينية "تشاو لي جيان" (Zhao Li Jian)، أن "الجيش الأمريكي جلب فيروس كورونا إلى مدينة ووهان"، التي ظهر بها أول مرة، وفي مقابل ذلك استخدم الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" (Donald Trump) عبارة "الفيروس الصيني"، وبدوره سعى وزير خارجيته، "مايك بومبيو" لتحميل الصين مسؤولية تفشي الوباء وأطلق عليه مراراً تسمية "فيروس ووهان". (زكاوي 2020، ص. 07)

وبغض النظر على رأي أصحاب "نظرية المؤامرة"، فتداعيات هذه الجائحة تفسر انكفاء الدول عن ذاتها، أين وقفت الاتحادات –على غرار الاتحاد الأوروبي- عاجزة في مواجهة هذه الجائحة، الأمر الذي يجعل الأفراد والدول يفقدون الثقة في هذه الكيانات، وسيتطلع المواطنون إلى الحكومات الوطنية لحمايتها، وبالتالي سنشهد تراجعاً آخر عن العولمة.

وكما هو الحال مع الهجرة والإرهاب يستخدم "المشككون" في أوروبا "المخاوف" من انتشار أكبر للجائحة بالدعوة إلى مزيد من الغلق و"الحواجز الوطنية"، خاصة في بداية الوباء الذي انتشر في ايطاليا بشكل كبير، وهو ما خلق معضلة كلاسيكية للاتحاد الأوروبي، بين الضغوط السياسية المحلية والاستجابات الوطنية، أين طالبت عديد الجهات بضرورة الغلق الصارم للحدود الوطنية داخل فضاء شنغن (Schengen).

وهو ما دفع بالسياسي الإيطالي "ماتيو سالفيني" (Matteo Salvini) إلى إلقاء اللوم على مجموعة شنغن، بحجة أن روما بحاجة إلى فرض حدود "مغطاة بالدروع"،(https://bloom.bg/3brHqNL) وفي نفس السياق قالت زعيمة اليمين المتطرف "مارين لوبان"، (Marine Le Pan) أنها "تؤيد تعليق شنغن وفرض عمليات تفتيش على الحدود الإيطالية". (https://bloom.bg/3brHqNL)

وهو ما يفسر "الاعتماد على الذات" من خلال تعزيز مفهوم المصلحة الوطنية في سبيل مواجهة جائحة كورونا، وهو المنحى الذي أخذته أغلب الدول بما في ذلك الدول الغربية التي تتبنى المذهب الليبرالي، بحيث أقرت تسع دول بما فيها ألمانيا وفرنسا العمل بأحكام الطوارئ لإعادة بعض الضوابط في أوقات مختلفة.(الشرقاوي، 2020، الجزء الثاني، ص. 9)

وقد لاحظ المؤرخون الطبيون منذ فترة طويلة أن "الديمقراطية" غير مفيدة في الأوبئة، بحيث يتطلب الأمر عمل سريع وحاسم، وهذا الانتشار يضع نموذج حكم بديل تحت الاختبار، فقد كان القادة الصينيون يتباهون تاريخيا بقدرتهم على "قهر المرض" باعتباره علامة على "القوة"،(https://bit.ly/38AmqCB) وهو ما عجزت عنه أغلب الدول الغربية المعتنقة للمذهب الليبرالي، بحيث كانت استجابتها بطيئة مقارنة بحجم وخطورة انتشار الوباء.

ويقود هذا الوضع الجديد، غير المألوف وغير المختبر من قبل، إلى انكفاء الدول على نفسها واهتمامها بمحاربة الفيروس والتخفيف من آثاره على أراضيها أولاً، فمنطق "الدفاع ضد التهديد" يقتضي أن كل دولة مسؤولة أمام مواطنيها بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن الدول سوف تعطي الأولوية والأسبقية لصالح الاستجابات الوطنية في مقابل الاستجابات الدولية،(عديلة 2021، ص. 14) وبالتالي ستخسر كل قدراتها ومواردها المادية والبشرية لهذا الغرض دون جدوى.

ومع الارتفاع المتزايد في عدد الإصابات، وعدم قدرة النظام الصحي في إيطاليا على الحد من انتشاره طلبت هذه الأخيرة استخدام "صندوق الإنقاذ الأوروبي" الذي يحتوي على نحو 500 مليار يورو للتعامل مع تداعيات الفيروس الإقتصادية في منطقة اليورو، وفي الوقت ذاته أكد رئيس الحكومة الإيطالية أن السياسة النقدية وحدها لا يمكنها حل جميع مشاكل الصدمة العالمية غير المسبوقة، وأن الوقت قد حان لاستخدام آلية الاستقرار الأوروبية (European stability mechanism).(وحدة الدراسات السياسية 2020، ص. 18)

في حين أن الأوروبيون لم يتوصلوا إلى اتفاق بشأن الأدوات والآليات الواجب اتباعها على المستوى الأوروبي، كما أن البيان الختامي لم يتضمن إشارة على الاستخدام الغير مشروط لصندوق إنقاذ الدول عبر آلية الاستقرار الأوروبي، إضافة إلى "سندات كورونا" الأوروبية التي طالبت بها دول الجنوب الأوروبي كإيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وترفضها النمسا وهولندا وألمانيا على وجه الخصوص، حيث لا تثق الأخيرة بطريقة إدارة الحسابات العامة لدول جنوب أوروبا.(وحدة الدراسات السياسية 2020، ص. 19)

فهذه الدول ليست مستعدة لأداء دور الضامن للبلدان المثقلة بالديون، وهو ما يعبر عن "هشاشة التعاون" الأوروبي على وجه الخصوص باعتباره كيانا وظيفيا كما تعبر عن ذلك الوظيفية والوظيفية الجديدة في تفسيرها لأهمية عامل الانتشار في التوجه نحو التعاون.

من جهة أخرى فرض فيروس كورونا تبني إجراءات لوقف التدفقات الضخمة العابرة للحدود بصورة غير مسبوقة، وتفكيك شبكات الاتصال العابرة للأقاليم (Global Interconnectedness) ، حيث جذبت الأزمة الانتباه إلى "الزوايا المظلمة" (Dark Sides)، حيث شهدنا ما يعرف ب "ارتداد العولمة" (Deglobalization).

في هذا السياق تداولت بعض التحليلات مصطلحات متعددة للتعبير عن اهتمام العولمة بالمسؤولية عن تفاقم أزمة كورونا، مثل "العولمة السلبية" (Negative Globalization)، والتي تركز على التأثيرات السلبية للعولمة من قبيل هيمنة الرأس المال والشركات الكبرى التي لا تولي اهتمام للنفع العام، وفي المقابل ركز آخرون على مصطلح "العولمة الهشة" (Fragile Globalization)، والمقصود بها ضعف القوى المحركة للعولمة في مواجهة الأزمات والتكيف معها، وفي نفس الاتجاه يركز آخرون على ضعف "اعتمادية العولمة" (Unreliable Globalization)،(يونس عبد الله 2020، ص. 09) والتي تسببها انكشاف الدول أمنياً وسياسياً (Vulnerability) بسبب الدرجة العالية من الاعتماد المتبادل (Interdependence)، بحيث أن الدول في هذه الحال لا تتمكن من توفير احتياجات مواطنيها الأساسية دون اللجوء للتعاون الخارجي.

من خلال هذا كله فإن أصحاب هذا التوجه يركزون على مدى أهمية المصلحة الوطنية من خلال اعتماد "المساعدة الذاتية" (Self Help)، وهو ما درجت الواقعية بالدعوة إليه في افتراضاتها الأساسية، كما أن تبني الدول خيارات غلق الحدود وفرض مزيد من القيود –كما هو حال دول الاتحاد الأوروبي- طرح سؤال حول مدى جدوى التكامل الإقليمي في ظل هذه الظروف الصحية، ومن جهة أخرى تدلل نسب تراجع النمو

الاقتصادي العالمي وتوقف عديد الشركات وانخفاض النفط في السوق العالمية وامتناع الدول عن تصدير المنتجات الطبية، وتطبيق قوانين الطوارئ، وتصاعد الأمننة (Securitization)، يعبر كل ذلك على تكلفة الانخراط في السياسات التعاونية، أي بحسب أصحاب هذا التوجه نحن بصدد تراجع للعولمة.

ب. الاتجاه الليبرالي وجائحة كورونا: مدخل نحو التعاون الدولي

في تيار مخالف في طروحاته للتيار الأول يعتقد أصحاب التوجه الليبرالي أن الوضع الحالي المصاحب لانتشار فيروس كورونا (كوفيد 19) يتطلب من الدول مزيد من التعاون، فالجائحة لم تعد تهدد الصين فقط التي ظهر بها الوباء أول مرة بل أصبحت "جائحة" وتهديد للعالم ككل دون استثناء.

وفي إجابته على سؤال "الفورين بولسي" "كيف سيصبح شكل العالم بعد جائحة كورونا؟"، يجيب "جوزيف ناي الابن" (Joseph S. Nye) بأنه في العام 2017 أعلن الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" عن استراتيجية أمنية وطنية جديدة تركز على منافسة القوى العظمى، ويظهر –كوفيد 19- أن هذه الإستراتيجية غير كافية، وحتى لو كانت الغلبة للولايات المتحدة كقوة عظمى، فإنها لا تستطيع أن تحمي أمنها بالعمل بمفردها، ويضيف "ناي" أنه فيما يتصل بالتهديدات المرتبطة بكوفيد 19 ليس كافي أن نفكر في القوة الأمريكية على حساب دول أخرى، إن مفتاح النجاح يتلخص أيضا في تعلم أهمية القوة مع الآخرين.(https://bit.ly/2LpPfc4)

ففي عالم اليوم الذي يتسم بالتبادل والترابط يكاد يكون مستحيلا بالنسبة لأي دولة أن تعزل نفسها عن بقية العالم، وسوف تظل الدول خاضعة لتأثرات التطورات في أجزاء أخرى من العالم، (https://bit.ly/3ieaWYI) كما هو حال فيروس كورونا، الذي ظهر في الصين في نهاية ديسمبر 2019 واليوم يشكل تهديدا لدول العالم أجمع، وبالتالي فمواضيع مثل "الصحة" وانتشار الأوبئة يحتم على الدول التعامل معها بشكل جماعي.

وفي سياق حديثه عن التداعيات الايجابية لفيروس كورونا يتساءل "راشيل سكوت" (Rachel Scott) عن ما إذا كان سيعم السلام في ظل هذه الظروف المصاحبة لفيروس كورونا؟، فحسبه قد تخلق الأزمات فرصا لإنهاء الصراعات طويلة الأمد، على غرار الطريقة التي ساعد بها "تسونامي 2004" في تمهيد طريق السلام في "أتشيه بإندونيسيا"، كما أن هناك دليل ناشئ على لفتات إنسانية بين الخصوم، بدعم الإمارات العربية لإيران والولايات المتحدة لجمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية والتواصل عبر الحدود بين فنزويلا وكولومبيا. (https://bit.ly/2XBpGHm)

وفي اعتقاد أصحاب التوجه الليبرالي فإن تصاعد الشعبوية وأصحاب نظرية المؤامرة –الذين يعتقدون أن الصين مساهمة عن قصد في نشر الفيروس- أن هذه الشائعات تغذي الشعور بالكراهية وتغذي العنصرية، وهو ما يخلق أزمات بين الدول، بل يجب الاعتراف بأن لدينا مصلحة جماعية في العمل من أجل الجميع، "فالصحة العامة" هي منفعة عامة، فالموقف عاجل –تقول "أناستاسيا إليسيفيا" (Anastasya Eliseeva)- يذكرنا بأنه على الرغم من أوجه التفاوت التي تخل بمجتمعاتنا فإن حياتنا ومستقبلنا سوف تتشابك في نهاية المطاف،(https://bit.ly/3qeSjGN) لأنه لدينا مصلحة مشتركة في ضمان حصول الجميع على الخدمات والرعاية الصحية.

ومن جهة أخرى يرد أصحاب المذهب الليبرالي على الرأي القائل بأن الأنظمة الديمقراطية لا تستجيب للوباء بسرعة، ويقدمون مثال بالصين التي استطاعت محاصرة فيروس كورونا، ولكن حسبهم هذا غير صحيح، فالصين لم تتحلى بالشفافية في بداية انتشار الوباء وهو ما دفع النظام لتوقيف الطبيب "لي وينيليانج" الذي كان أول من بلغ على انتشار "فيروس خطير" واتهم بالنشر الكذب والشائعات، الأمر الذي خلف غضب شعبي في وسائل التواصل الاجتماعي بعد وفاته بفيروس كورونا.

ولم يتوانى أصحاب دراسات السلام وعلى رأسهم "يوهان غالتونغ" (Johan Galtung) في الدفاع عن الرابط القوي بين الاحتياجات البشرية والتنمية، إذ يقول "من المنطقي التحدث عن فئات معينة من الاحتياجات، مثل "الاحتياجات الأمنية" و"احتياجات الرفاهية" و"احتياجات الحرية" لأخذ التصنيف الذي سيتم استخدامه هنا".(الشرقاوي 2020، الجزء الثاني، ص. 22) فكل هذه الاحتياجات تتأتى من نظم أكثر عدالة وتحفظ الحقوق والحريات بما يسهم في بناء منظومة صحية قوية وتوفير مستوى من التعليم وحرية البحث.

وقد طرح "يوفال نوح هراري" (Yuval Noah Harari) قضية من أجل "تضامن عالمي" أكبر بعد الوباء، بحيث حذر من بعض الآثار الجانبية التي قد تكون "شريرة"، مثل نشر تقنيات المراقبة وصعود الاستبداد وانهيار الثقة المجتمعية، ويطرح أفكارا مثيرة حول ما يسميه "شرطة الصابون"، أي الذين تم تفويضهم لفرض غسل اليدين، بحث دعى "هراري" إلى وضع خطة عالمية تتضمن مشاركة الجميع في التعامل مع التداعيات الاقتصادية وعدم طرح الحواجز. (https://bit.ly/3qcpRVY)

وعليه يمكن القول أن الحديث عن أهمية التعاون والجوانب الايجابية في ظل هذا الوضع ليس معناه أنه يقلل من حجم الأزمة وخطورتها، ولكن هذه فرصة لوضع تصور للمستقبل في حالة اندلاع أزمات شبيهة بفيروس كورونا، وهو ما يشجع على أهمية التضامن في مواجهة هكذا أزمات ذات طابع عالمي، فالعالم اليوم قرية صغيرة ولا يمكن للدول أن تظل رهينة عزلتها وغلق حدودها لأوقات طويلة.

الخاتمة

في الأخير ما يمكن الاتفاق حوله من خلال كل ما سبق أن ما خلفه فيروس كورونا على مستوى حقل العلاقات الدولية هو تعدد في زوايا النظر، وكل زاوية تقدم صورة مختلفة عن الأخرى، بحيث تكون وجهة نظر الباحثين والمفكرين كمن يضع نظارات شمسية على حد تعبير –جون بيليس- بحيث يكون العالم بلون النظارة التي يضعها المفكر أو الباحث، فتارة يكون هناك تفسير مع الانفتاح وأخر مع الحماية، ورأي يرى ضرورة الاعتماد على الذات وأخر يرى ضرورة التوجه نحو التعاون، وغيرها من الثنائيات.

من جهة أخرى فإن جل هذه النقاشات مصدرها هو المدارس الغربية بصفة عامة، وهو ما يدفعنا للتساؤل حول ما إذا كانت المدرسة العربية والإسلامية لا تزال تحت هول صدمة الفيروس التاجي، أم أنها ستظل ساحة استهلاكية فقط لمثل هذه المواضيع المعرفية، أي ما إذا ستظل تركز على "حل المشاكل (Problem Solving) دون "التأمل" (Reflection)، ففيروس كورونا لم يكن ليعترف بالحدود بين الدول أو التمييز بين البشر، وكذلك المعرفة حوله تحتاج إلى التفكير بما يتناسب والبيئة التي يولد منها الرأي والنظرية، ومنها البيئة العربية والإسلامية التي ظلت إلى أمد طويل رهينة لأطر نظرية ومعارف غربية وليدة بيئة مختلفة، لذلك نتساءل هنا كيف سيكون شكل العالم العربي والإسلامي بعد فيروس كورونا؟.

بالمحصلة فإن كل الآراء الواردة أنفا هي جزء من "الدورة المعرفية" والمقترنة أساساً بوصف الظاهرة وتفسيرها ومحاولة التنبؤ بمسارها والتحكم فيها، وبالنسبة لحالة "فيروس كورونا" ومستوى النقاش الذي وصل إليه الباحثين والمفكرين حوله يعبر فعلاً على حجم وأهمية الظاهرة من جهة وعمقها من جهة أخرى، وهي –أي ظاهرة ظهور فيروس كورونا- لا تقل تداعياتها عن ما خلفته نهاية الحرب الباردة وأحداث 11 سبتمبر 2001 من تداعيات على الجوانب الفكرية والنظرية في حقل العلاقات الدولية.

قائمة المراجع

1. بيليس، جون. سميث، ستيف. (2004). عولمة السياسة العالمية. الإمارات العربية المتحدة: مركز الخليج للأبحاث.
2. ترفرتون، غريغوري. نميث، إيريك. سرينيفاسان، سيندوجا. (2012). تهديدات من غير مهددين؟ استكشاف نقاط التقاطع بين التهديدات ضد المشاعات العالمية والأمن القومي. الولايات المتحدة الأمريكية: مؤسسة RAND.
3. الرويح، حمد. مشاري. (2020). أثر أزمة كورونا على دراسة العلاقات الدولية بين الحل، التأمل، وإعادة اكتشاف الذات. في: أزمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع والعلوم السياسية والعلاقات الدولية. قطر: مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية.
4. زكاوي، نبيل. (2020). أزمة كورونا العالمية: حدث بيولوجي يقلد هجوما بيولوجيا. سلسلة تحليل السياسات. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
5. شبكة راية الإعلامية. (2021). آخر إحصائيات فيروس كورونا حول العالم. https://bit.ly/2XykunU، 2021/01/09.
6. الشرفات، سعود. (2020). العلاقات الدولية وعالم "مابعد" وباء كورونا، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. https://bit.ly/2XyCcaB، 2021/01/11.
7. الشرقاوي، محمد. (2020). التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية. الجزء الأول، مركز الجزيرة للدراسات. https://bit.ly/3byfIPg، 2021/01/06.
8. الشرقاوي، محمد. (2020). التحولات الجيوسياسية لفيروس كورونا وتآكل النيوليبرالية. الجزء الثاني، مركز الجزيرة للدراسات. https://bit.ly/3byfIPg، 2021/01/07.
9. عديلة، محمد. الطاهر. جائحة كورونا "كوفيد 19" وأنماط الاستجابات الدولية بين مطلب التضامن وسياسات الانكفاء على الذات. (2021). المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، المجلد6، العدد1. https://bit.ly/3oI7Rm2، 2021/01/07.
10. وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي. (2020). قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
11. يونس، عبد الله. محمد. كيف ترسم المفاهيم المتداولة ملامح "عالم ما بعد كورونا". دراسات خاصة. الإمارات العربية المتحدة: المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة. https://bit.ly/3spIUOD، 2021/01/08.
12. Eliseeva, Anastasya. Coronavirus and the crisis of capitalism. (2020). https://bit.ly/39ladRi, 06/01/2021.
13. Roberts, Anthea. Lamp, Nicolas. (2020). Is the Virus Killing Globalization? There's No One Answer. https://bit.ly/3qbuZK1, 07/01/2021.
14. Spinney, Laura. Coronavirus and the geopolitics of disease. (2020). https://bit.ly/2MMKQ3a, 10/01/2021.
15. Tharoor, Ishaan. How epidemics have changed the world. (2020). https://bit.ly/3buz7Ax, 08/01/2021.
16. Nye, S. Joseph. Walt, M. Stephen. How the World Will Look After the Coronavirus Pandemic. (2020). https://bit.ly/2LrIsOZ, 07/01/2021.

17. Fidler, P. David. The Globalization of Public Health: Emerging Infectious Diseases and International Relations. (1997). https://bit.ly/3qmr50L, 02/01/2021.
18. Laurent, Lionel. Salvini and Le Pan Don't Have a Coronavirus Cure. (2020). https://bloom.bg/3brHqNL, 09/01/2021.
19. Sabah, Daily. Coronavirus: A human security issue. (2020). https://bit.ly/3ieaWYI, 09/01/2021.
20. Scott, Rachel. Could Coronavirus lead to a "positive peace"?. (2020). https://bit.ly/2XBpGHm, 11/01/2021.